

سُورَةُ نُوحٍ



النَّزْولُ: مَكِيَّةٌ.

المَقَاصِدُ:

- ١ - بيان قصة نبي الله نوح ﷺ ، ومعاناته مع قومه .
- ٢ - بيان عظمة الله تعالى من خلال الإبداع في خلق السموات ، والأرض ، والإنسان .
- ٣ - تسليمة النبي ﷺ وأصحابه في مواجهة المشركين ، وإيذائهم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنَّا لَنْدِرُ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلٍ أَنْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١
لَكُنْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٢﴾ أَنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ﴾٣﴾ يَعْفُرُ لَكُمْ مِنْ ذُوِّبَكُمْ وَيُؤْخِرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىٰ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخِّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾٤﴾

التَّفْسِيرُ:

- ١ - يخبر الله تعالى عن نفسه بضمير العظمة ، وبالتأكيد المفيد للاهتمام بالخبر ، أنه بعث نبيه نوحًا إلى قومه ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، ويُخوّفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وهو عذاب مؤلم موجع .
- ٢ - ٣ - قام نوح ﷺ بأداء مهمته وأعلم قومه أنه مرسل من الله تعالى إليهم ودعاهم إلى توحيد الله ونحوّفهم من عاقبة الكفر به سبحانه ، ووضّح لهم

محتوى الرسالة، وأمرهم بعبادة الله تعالى على الوجه الذي يرضيه، وباجتناب ما يغضبه، كما أمرهم بطاعته فيما يدعوه إليه، فهو المبلغ عن ربه.

٤ - أعلم نوح قومه أنَّهم إن أطاعوه وآمنوا بالله فإن الله تعالى يغفر لهم ما مضى من ذنوب وسيئات قبل حصول الإيمان منهم، ويبارك لهم في أعمارهم، ويرفع عنهم العذاب الذي ينزل بالكافرين، ولكن إن حان موعد موت أحدهم فإنه سيلقى حتفه دون تأخير، لأنَّ هذا مُثبتٌ في عِلمِ الله، ومُقدَّرٌ على جميع الخلق، ومنْ عَلِمَ هذا سارع إلى الإيمان والتصديق.

الفوائد والاستنباطات:

١ - اختيار أن يكون النبي مرسلاً إلى قومه لا إلى غيرهم؛ ليكون ذلك آنساً لهم، وأقرب إلى الاستجابة.

٢ - تقديم الإنذار لمناسبة المقام وللاهتمام، وعُطف عليه التبشير بمغفرة الذنوب والبركة في العمر.

٣ - سَلَكَ نبِيُّ الله نوح ﷺ مع قومه أسلوب التقرُّب والتودُّد إليهم، فنسبهم إلى نفسه، وذَكَرَهم بأنَّهم قومه، وأنَّه منهم.

٤ - يمكن تلخيص دعوة النبي الكريم في ثلاثة جمل هي: اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون.

٥ - أكَّدَ نوح ﷺ كلامَه لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّينٌ﴾ ليُزيلَ ترددَهم، وقَدَّمَهم في الذِّكر ﴿لَكُم﴾ ليشعرون بالاهتمام بأمرهم.

٦ - تفيد ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُم﴾ بيان أن الذنوب التي تُكَفَّر بحصول الإيمان هي ما سبق من الذنوب، وما لا تَعْلُق له بحقِّ إِنْسَانٍ.

٧ - من فوائد الإيمان بالله حصول البركة في العمر.

٨ - الأجل المقدر في علم الله تعالى ثابت لا يتأخر، ولا يتقدم.

٩ - حذف جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لدلالة ما قبله عليه، وهو: لسارعتم إلى الإيمان، والاستجابة لما يأمركم به نبيُّكم.

﴿فَالرَّبُّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمَى لَيَلَّا وَنَهَارًا ﴾٦ فَلَمْ يَرِدُهُمْ دُعَاءِ إِلَّا فِرَارًا ﴾٧ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ
لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا شَابِيهِمْ وَأَصْرَوْا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا ﴾٨ ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾٩ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَمُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾١٠ فَقُلْتُ أَسْتَغْفِرُوْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ
غَفَارًا ﴾١١ يُرِسِّلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا ﴾١٢ وَيَمْدُدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ
أَنْهَارًا ﴾١٣ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾١٤ وَقَدْ خَلَقْتُمُ الْطَّوَارِيْخَ ﴾١٥ أَلَّا تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبَعَ
سَمَوَاتٍ طَبَاقًا ﴾١٦ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ أَشْمَسَ سَرَاجًا ﴾١٧ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
بَنَاتًا ﴾١٨ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُنْجِحُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾١٩ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سِرَاطًا ﴾٢٠ لِتَسْلُكُوْ مِنْهَا
سُبُّلًا فِي جَاهَاجًا ﴾٢١﴾

التفسير:

موضوع هذه الآيات تفصيل حديث نبي الله نوح ﷺ عن دعوته قومه إلى الإيمان والأساليب المتعددة المتنوعة التي سلكها :

٦ - قال نوح مناجياً ربه شاكياً إليه موقف قومه من دعوته إياهم: يا رب، لقد دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة في أوقات الليل، وفي أوقات النهار، بحثاً عن الوقت الأنسب لاستجابتهم، ولكنهم لم يستجيبوا إلى نصحي ودعوتي إياهم إلى الإيمان، وكانوا كلما دعوا لهم نفروا مني، وأغترضوا عني إعراضاً بالغاً.

٧ - وكانوا حينما أدعوهם إلى الإيمان والاستقامة، وأيّين لهم أن الإيمان سبب لمغفرة ذنبهم يبالغون في الإعراض عن سماع كلامي إلى درجة أن يضعوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا كلامي، ويُعْطُوا رؤوسهم وأجسادهم بشبابهم لئلا يرَوْنِي، واستمرروا على هذا الفعل مستكبرين عن طاعتي واتباعي.

٨ - ٩ - واصل نوح ﷺ كلامه مبيناً أنه سلك أساليب متنوعة في دعوة قومه، فقد دعاهم جهاراً في العلن، وسرّاً في الخفاء، وهذا يدلّ على دعوته إياهم مجتمعين ومتفرقين، وفي ذلك موافقة لحال المدعوين، فإن منهم من

يناسبه الدعوة في العلن والمجتمع، ومنهم من يناسبه الدعوة في السرّ والانفراد.

١٠ - ١٢ - في هذه الآيات تفصيل بعض ما كان يقوله نوح ﷺ لقومه من باب الترغيب والتحث على الإيمان، فقد دعاهم إلى الاستغفار بعد الإيمان بالله العظيم الذي يستجيب فيغفر الذنب، وهو كثير المغفرة لمن يقبل عليه بالتوبة، ووعدهم إن آمنوا واستغفروا أن يُنزل الله تعالى عليهم الغيث متتابعاً غزيراً، وأن يزيد في أموالهم وأولادهم، وأن يُوسّع عليهم في المعيشة، فتصبح في أرضهم بساتين مثمرة، وتجري لهم الأنهار يَسْقُون منها، ويتمتعون بها.

١٣ - ١٤ - في هاتين الآيتين انتقال من الترغيب إلى التوبيخ، فقد سأله نوح ﷺ قومه عن السبب الذي يصدّهم عن الإيمان بالله وتعظيمه ورجاء رحمته والخوف من عقابه، وهم يرون دلائل وجود الله وعظمته بأعينهم، ولا يملك أي مخلوق ادعاء أنه فاعل ذلك، وهو خلق الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة، وتَغْيِير حالي ونموه بعد ولادته طفلاً فصبياً فشباً. إن في هذا الخلق أعظم دليلاً على الله، فما الذي صرفهم عن الإيمان به؟

١٥ - ١٦ - في هاتين الآيتين دليل آخر على عظمة الله، بيّنه نوح لقومه وهو يدعوهم إلى الله؛ ليؤكّد عظمة الخالق من خلال خلق السموات السبع الواسعة العظيمة المركبة بعضها فوق بعض، ومن خلال خلق القمر والشمس في السماء الدنيا من هذه السموات، وجعل القمر منيراً لأهل الأرض ينتفعون من نوره، ويعلمون من مراحله الشهور والأيام، وجعل الشمس مصباحاً يهب للأرض الضياء والحرارة.

١٧ - ١٨ - عاد نوح ﷺ إلى تذكير قومه بنعمه الخلق، مذكراً إياهم بأنَّ الله خلق أباهم آدم من تراب الأرض، وبأنَّ الإنسان يعود بعد الموت إلى الأرض، فيدفن فيها، ويتلاشى في جوفها، ثم يُخرجه الله منها يوم القيمة، وهذه الثلاثة: الخلق من الأرض، والإعادة فيها، ثم الإخراج منها، من أعظم الأدلة على قدرة الخالق سبحانه.

١٩ - ٢٠ - لفت نوح ﷺ نظر قومه إلى آية واضحة قريبة من آيات الله،

وهي هذه الأرض التي نحيا عليها، وهي ممهدة مسخرة للإنسان في سير في أرجائها لقضاء مصالحة، وابتغاء معاشه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - على الداعي إلى الله تعالى أن يسلك جميع الوسائل، والسبل المتشقة له في دعوته، وأن يبذل كل جهد ممكن في سبيل هداية المدعوين، ومخاطبة كل إنسان بما يلائمه، وفي الظرف الذي يناسبه، فمنهم من يُرجى استجابته إذا دُعي جهاراً، ومنهم من يُرجى استجابته إذا خوطب منفرداً.
- ٢ - يلحظ مبالغة قوم نوح في التهرب من سماعه ورؤيته، وإصرارهم على الكفر، واستكبارهم عن طاعتة. كل هذا بسبب تأصل الكفر في نفوسهم، وتعلقهم بالدنيا الزائلة.

٣ - أكد نوح ﷺ صفة المغفرة لله تعالى بأكثر من مؤكّد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَافِرًا﴾ حيث استخدم «إن» و«كان» الدالة على ثبوت هذه الصفة، وصيغة المبالغة فعال، هذا التأكيد لتعظيم رجائهم بربهم.

٤ - في الآيتين (١١ - ١٢) إخبار مستقبلي بأنّ جزاء التوبة والاستغفار هو إنزال الله المطر الغير المتتابع، وإكثار الأموال والأولاد، وجعل الحدائق التي ينعم بشارتها وجمالها، وجعل الأنهر التي تُسقى منها الزروع والمواشي.

٥ - جمّع نوح ﷺ في دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، وبين فوائد الإيمان الدنيوية والأخروية، وبين لفت النظر إلى الآيات العلوية في السماء والدنيا في الأرض، ويُدلّ ذلك على بذلك ﷺ غاية الجهد في سبيل هداية قومه.

٦ - من ثمرات الإيمان في الدنيا حصول رغد العيش، والسعنة في الرزق، وكثرة المال والولد، كما بيّنت هذه الآيات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ولا يمنع هذا من حصول البلاء والضيق على فترات، أو لأفراد من الأمة ابتلاء واختباراً.

٧ - ينظر: صورة أطوار خلق الجنين، كما في الملحق.

٨ - الرؤية في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ ترَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ عِلْمِيَةٌ
وليس بصرية ، فليس بإمكان الناس رؤية ما بعد السماء الأولى .

٩ - وصفت الشمس بالسراج ؛ لأنها ملتهبة ، ونورها ذاتي صادر عنها إلى الأرض ، ووصف القمر بالنور ؛ لأن نورها ليس ذاتي ، إنما هو انعكاس لأشعة الشمس .

١٠ - مصدر «أنت» المتعدي : إنبات ، ومصدر «نبت» اللازم : نبات ،
وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى وجُود حَذْفٍ في الآية الْكَرِيمَةَ : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾
والتقدير : والله أنتكم من الأرض إنباتاً فنبتم نباتاً ، فحذف في كل جملة
ما أثبته في الأخرى ، وهو نوع من أنواع البلاغة . وفي هذه الآية تشبيه نمو
الإنسان بنمو النبات .

١١ - يُستدل بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ إِسَاطِارًا﴾ على كُرويَةِ
الْأَرْضِ ؛ لأنَّ الشَّكْلَ الْكُرويَّ هو الشَّكْلُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَمْتَدُ وَيَنْبَسِطُ ، وَيَتَصَلُّ
أَوْلَهُ بَآخِرِهِ بِلَا اِنْقِطَاعٍ ، وَهُوَ مَا عَبَرَتْ عَنْهُ الْآيَةُ بِالْبَسْطِ .

﴿فَالْجُنُونُ رَبُّ إِنْتَمْ عَصَوْنِي وَأَتَبْعَوْمَنِ لَمْ يَرِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُوْمَ مَكْرًا
كَبَارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذْرُنَّ إِلَهَتَكُمْ وَلَا نَذْرُنَّ وَدًا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَعْوَزُ وَيَعْوَزُ وَشَرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ
أَصْلَوْا كَثِيرًا وَلَا تَرِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا حَطَّيْتُهُمْ أَغْرِقُوا فَادْخُلُوا نَارًا فَمَنْ يَمْحُدُ وَلَهُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّي لَا نَذْرٌ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ نَدِيَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرُّهُمْ
يُضْلُلُو عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُو إِلَّا فَاجِرًا كَفَارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ أَعْفِرُ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَكَ
مُؤْمِنًا وَلِمُؤْمِنِينَ وَأَمْؤْمِنَتَ وَلَا تَرِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢١ - تخبر هذه الآية على لسان نوح ﷺ شكوكه من قومه ، وأنهم لم
يطبعوه فيما أمرهم به من الإيمان والاستغفار ، وأنهم فضلوا على ذلك اتباع
كبارهم الذين لم ينتفعوا بما رزقهم الله من مال وولد ، فأنفقوا أموالهم للصدّ

عن سبيل الله، وأمروا أولادهم بالكفر، واستعنوا بهم على تأييد الأتباع، وكان ذلك سبباً لزيادة خسارتهم.

٢٢ - إنَّ الْكُبَرَاءَ مِنْ قَوْمٍ نُوحٍ عَمِلُوا بِخَفَاءِ، وَدَبَرُوا إِلِيْسَاءَ لِنَبِيِّهِمْ، واجتهدوا في ذلك كثيراً، وبذلوا له وقتهم وفكراهم، وكان من هذا المكر ما أخبرت به الآية التالية:

٢٣ - أَمَرَ الْكُبَرَاءَ مِنْ قَوْمٍ نُوحٍ أَتَبَاعُهُمْ بِعِبَادَةِ الْآلهَةِ الَّتِي يعبدونها من دون الله، وهي آلهة متعددة منها: وَدٌ وسُوَاعٌ وَيَغُوثٌ وَيَعُوقٌ وَنَسْرٌ، وهي أصنام لرجال صالحين كانوا من قوم نوح. فلما ثُوَّفُوا أغري الشيطان قومهم أن ينصبوا لهم تماثيل في مجالسهم، ويسموها بأسمائهم؛ ليكون ذلك أعون لهم على الطاعة إذا رأوا صور الصالحين.

٢٤ - وكان هذا التحريض من الكبراء لأتباعهم بعبادة الأصنام سبباً لإضلalٍ كثیرٍ منهم، فإنَّ من عادة الناس اتباع كبارهم فيما يوجّهونهم إليه. وقد استدعي هذا الفعل من الكباء وأتباعهم أن يصدر من نوح ﷺ دعاء عليهم جميعاً: بأن يزيد الله في ضلالهم، وأن يعذّبهم بعد ذلك على كفرهم، وشرّكهم به.

٢٥ - وكان نتيجة كفر قوم نوح وعنادهم وإصرارهم على الضلال أن أغرقوا بالطوفان، وسيُعذّبون يوم القيمة بعذاب النار جزاء ما عملوا، ولم يكن لهم في الدنيا حين أغرقهم الله، ولن يكون لهم في الآخرة حين يعذّبهم الله نصيراً من آهاتهم ولا غيرها يمنع عنهم العذاب، فلم تنفعهم هذه الآلة، ولم تُغْنِ عنهم شيئاً.

٢٦ - ٢٨ - وكان نوح ﷺ قد دعا على قومه بالهلاك والاستئصال بعد أن يئس من إيمانهم، وبعد أن أوحى الله إليه: ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمَكَ إِلَّا مَنْ قَدْ أَمَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فطلب إلى ربّه أن يهلك هؤلاء القوم، وألا يبقى منهم أحداً يسكن في الديار، مُعَلّلاً ذلك بأنهم إن بقوا على ما هم عليه فإنّهم سيتمادون في الكفر والإضلal، وسيستمر الضلال في ذريتهم وأبنائهم من بعدهم، خاتماً دعاءه بطلب المغفرة لنفسه ولوالديه، ولكلّ مَنْ دخل داره مؤمناً

ولجميع المؤمنين والمؤمنات، ثم دعا مرة أخرى على أهل الكفر والظلم بالهلاك والخسران التام.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يجتمع أهل الباطل على محاربة الحق، ويبذلون في ذلك جهداً كبيراً.
 - ٢ - حُرمت الصور والتماشيل من باب سد الذرائع. وهو باب واسع من أبواب المحافظة على الدين، وذلك لئلا تُعبد من دون الله بعد أجيال أو قرون.
 - ٣ - ذم المبالغة في تعظيم الأشخاص وتبجيلهم.
 - ٤ - بلغ من حرصِ قوم نوح على التمسك بالهتّم أن أضافوها إلى أنفسهم ﴿ءَالهتَّم﴾.
 - ٥ - يسلك الشيطان حيال ظاهرها الخير ومالها الشر، فليكن المرء في غاية الحذر من حيل الشيطان ومكايده.
 - ٦ - قال ابن عاشور: «ذُكرتْ (لا) مع ثلاثة من أسماء الأصنام، وحُذفتْ من الإثنين الآخرين، لأنَّه لا يزداد في التوكيد على ثلاث مرات».
- (التحرير والتنوير: ٢٩٠/٢١٠).
- ٧ - ينظر: خريطة موقع الأصنام، كما في الملحق.
 - ٨ - مع طول مدة دعوة نوح ﷺ، ومع كثرة ما لقي في دعوته من شدائده وإيذاء، لم يدع على قومه بالهلاك إلا بعد أن أعلم الله بأنه لن يؤمن أحد من قومه، فلم يبق معه بعد هذا الإعلام مجال للدعوة، وكان لا بد في هذا الحال من التغيير والاستبدال.
 - ٩ - يلحظ أثر البيئة المحيطة بالمرء في سلوكه وعمله، فمن يعيش في بيته أهل الضلال والهوى يتأثر بها ولو بشكل يسير.
 - ١٠ - دعاء نوح ﷺ لنفسه بالمغفرة من باب التمهيد؛ لإتمام الدعاء لمن سيذكرهم بعد ذلك، ولتعليم من بعده من الداعين أن يتدرّجوا في الدعاء بهذه الطريقة بدءاً بالنفس فالوالدين فالمعارف، فعموم أهل الإيمان.

١١ - بيان كرامة الصالحين على الله تعالى، وعظيم منزلتهم عنده، فقد أهلك قوم نوح، وجعل ذلك آيةً كبرى، وهي الطوفان انتقاماً لنبيه وأتباعه، وإن كانوا قلة في العدد، فهم في ميزان الله ذُوو منزلةٍ عظمى ومكانةٍ كبرى.

